﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

هنا - بعد هذه الآيات وقبل تفسيرها - نقدم تفسيراً للنفاق عن الإمام

أمير المؤمنين علي عليه السلام النفاق على أربع دعائم: على الهوى والهوينا[١] والحفيظة والطمع، فالهوى على أربع شعب: على البغي والعدوان والشهوة والطغيان فمن بغى كثرت غوائله وعلّاته[٢]، ومن اعتدى لم تؤمن بوائقه ولم يسلم قلبه، ومن لم يعزل نفسه عن الشهوات خاض في الخبيثات، ومن طغى ضل على غير يقين ولا حجة له.

وشعب الهوينا: الهيبة والغرّة والمماطلة والأمل، وذلك لأن الهيبة ترد على دين الحق، وتفرط المماطلة في العمل حتى يقدم الأجل، ولولا الأمل علم الإنسان حسب ما هو فيه، ولو علم حسب ما هو فيه مات من الهول والوجل.

وشعب الحفيظة: الكبر والفخر والحميّة والعصبية، فمن استكبر أدبر، ومن فخر فجر، ومن حمى أصرّ، ومن أخذته العصبية جار، فبئس الأمر أمر بين الاستكبار والإدبار، وفجور وجور.

وشعب الطمع أربع: الفرح والمَرَح واللجاجة والتكاثر، فالفرح مكروه عند الله عزوجل، والمرح خيلاء، واللجاجة بلاء لمن اضطرته إلى حبائل الآثام، والتكاثر لهوٌ وشغل، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، فذلك النفاق ودعائمه وشعبه»[٣].

. . . وفي الحق إن دور المنافقين هو أخطر الأدوار ضد الرسالات الإلهية ولا سيما الرسالة الإسلامية، وأخطر من الكافرين أيضاً، ترى عرض حالهم في سورة تخصهم «المنافقون» وفي عامة القرآن نلمس خاص الاهتمام بعرض قضاياهم ورزاياهم كثيراً وكما هنا، فبعد آيات أربع تستعرض حال

(١) الهوينا تصغير الهونى مؤنث الإهوان، أي التهاون في أمر الدين.
(٢) علات جمع العلة.
(٣) نور الثقلين ١: ٣٤ عن كتاب الخصال للصدوق عن الأصبغ بن نباتة عنه عليه السلام . . .

المتقين، وآيتين تخصان الكافرين، نجد ثلاث عشرة تخص المنافقين، وكما تتحدث عنهم ثلاث عشرة سورة في مئات الآيات مصرحة بهم أحياناً[١] وملمّحة، أخرى تفضحهم في عرض حالهم ومآلهم، وثالثة تدخلهم ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٢]:

تخطّينا شفافية الصورة الأولى إلى عتامة الظلامة الثانية، فإذا الثالثة ليست كالأولى ولا كالثانية، فإنها صورة صلتة ملتوية خادعة خائنة لا تقف لحد لكي نعرفها، ألَا وهي الصورة المنافقة، لا ذات شجاعة وانطلاقة في الضمير لتواجه الحق بصريح الإيمان وخالصه، ولا ذات جرأة لتواجهه بالنكران، ثعلبة تماكر بغية البقاء على كيانها، عميلة في عملياتها للكلاب والذئاب، مظهرة إخلاصها للأسد في الغاب، جاسوسة لهذه عن تلك، لا صورة لها ثابتة تعرف اللّهم إلّا مماكرات ومخادعات، وادعاءات - مع ذلك - أنهم أذكياء دهاة، عقلاء مصلحون، مترفعون على البسطاء أم ماذا! ولكن الله يواصفهم بواقعهم المكر الخداع، الخلاء الخواء عن كلّ حقيقة إلّا ادعاء! وهم يعيشون بنفاقهم ثالوث: ١ - مشاركة المؤمنين فيما يمن الله عليهم دنياً، ٢ - اتقاء ما يحكم به على الكافر كذلك، ٣ - التجسس عن أحوالهم إلى شياطينهم، إلّا أن ثالوثهم هالك مفضوح بما يفضحهم الله وينبه الرسول والمؤمنين!

وهنا استعراض لأبواب سبعة من جحيم المنافقين يغلقها الله على المؤمنين:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾:

باب أوّل: ناس في الحق هم نسناس ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي

(١) كما في سبع وثلاثين آية، راجع تفسير سورة (المنافقون) ج ٢٨: ٣٥٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

قُلُوبِهِمۚ﴾[١] ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: وهو حالة تصديق في القلب ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾: حال أن قلوبهم خاوية عن الإيمان، كافرة بمبادئ الإيمان، فقد يوافق القلب اللسان في دعوى الإيمان فهو إيمان، وقد ينافقه فهو الكفر والنفاق، وآخر لا ينافقه إذ لا يعانده ولا يوافقه إذ لم يعرفه فلمّا لم يدخل الإيمان فيه وهو يتروّيه، فهذا إسلام بلا إيمان: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾[٢] فهي عائشة حالة الانتظار حتى تؤمن كما النص فيه «ولمّا» دون استهتار المنافق ولعبته حيث فيه ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾: ليسوا ممن يؤمن ولا يتروّى الإيمان، فأولاء هم المندّد بهم دون هؤلاء، إلّا تجهيلاً تخطئة في التعبير ﴿ءَامَنَّاۖ﴾ بل ﴿قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا﴾[٣]!

وهذه حالات أربع حاضرة في مواجهات الإيمان: كفراً ونفاقاً أو إسلاماً مترويّاً أو إيماناً، ومهما سمي المنافق مسلماً فإن إسلامه استسلام لا إسلام[٤].

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾:

باب ثان وهي الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يُبديه على خلاف ما يخفيه، والمخادعة خداع بين طرفين، ابتداء من طرف وانتهاءً إلى آخر، كفاحاً ضد الخداع: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[٥] وأين

(١) سورة الفتح، الآية: ١١.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٤) إن للسان والقلب والأركان أحوال:
فقد يقر اللسان بالحق وقد ينكر أو يسكت، ثم قد يوافقه القلب في الإقرار أو ينافقه أو يتردد مترويا الحجة للكفر أو الإيمان، ثم قد يوافقها العمل أو ينافقهما.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

خداع من خداع، خداع أوّل كلّه عجز ومكر وكذب ونفاق كما المخادعين الله، وخداع ثان لا تحمل إلّا اسمه فإنها عن قدرة وصدق جزاء الوفاق، كما الله: حيث يأمر بجري أحكام الإسلام عليهم هنا، وفي الآخرة لهم عذاب أليم، ويكشف أسرارهم للنبي والمؤمنين حيث يخادعون ثم يوم القيامة يريهم جناته كأنهم واردوها ثم ينأون عنها مهانين كما «يفتح لهم باب جهنم فيظنون أنهم يخرجون منها فيزدحمون للخروج فإذا انتهوا إلى الباب ردتهم الملائكة حتى يرجعوا»[(١)]: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[(٢)]. فجزاء الخداع خداع مثله فإنه حق، إلّا في باطله، وفي عجزه فإنه قدرة، وفي كذبه فإنه صدق، وإنما التموية والإخفاء في الخداع الجزاء إيلام كما آلموا المؤمنين جزاءً وفاقاً[(٣)].

إنهم كما يزعمون ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ﴾ آمنوا وفي الحق ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ إذ لن تؤثر خداعهم في الله، ولا تؤثر في المؤمنين بالله، اللّهم

(١) الدر المنثور ١: ٣٠ - أخرج أحمد بن منيع عن رجل من الصحابة أن قائلاً من المسلمين قال: يا رسول الله ﷺ! ما النجاة غداً؟ قال: لا تخادع الله - قال: وكيف نخادع الله؟ قال: أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره، فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله فإن المرائي ينادي به يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة اسماء: يا كافر! يا فاجر! يا خاسر! يا غادر! ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند الله فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع وقرأ آيات من القرآن: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ١١٠] الآية و﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٤٢] الآية، وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه مثله.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٢.

(٣) نور الثقلين ١: ٣٥ عن العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث: إن الله تعالى لا يسخر ولا يستهزأ ولا يمكر ولا يخادع ولكنه يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.
وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: واعلم أنك لا تقدر على إخفاء شيء من باطنك عليه تعالى فتصير مخدوعاً بنفسك - قال الله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩]...

إلّا قليلاً يرجع بضرر كثير عليهم أنفسهم، فهم بخداعهم مفضوحون يوم الدنيا بما يفضحهم الله، ويفضحون أنفسهم حيث يُعرفون في لحن القول: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1] - فما أضمر أحدٌ أمراً إلّا وقد يظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه - ثم «هم يوم القيامة من المفضوحين».

«و» لكنهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن خداعهم راجعة إليهم فلو شعروا ما خادعوا.

ثم النفاق وخداعه دركات صاعدة إلى الكفر النفاق ونازلة إلى السمعة والرئاء كما جزاؤه دركات حسب الدركات طبقاً عن طبق.

ولماذا ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ دون ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ نفياً لما حاولوا طبقاً عن طبق؟

علّه لأن الواقع من فعلهم لم يكن مخادعة، حيث الله لا يخادع، والمؤمنون لا يخدعون بما يفضح الله المخادعين، فلا تبقى في ميدان الخداع إلّا أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ والخادع لا يخادع نفسه لوحدته، وإنما يخدعها، ويا ويلاه إذا كانت مخادعتهم تبوء بالخدعة لأنفسهم و﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾!.

وترى إذا ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فكيف التنديد بهم والعذاب، والشعور مدار التكليف فالثواب والعقاب؟

الجواب: أن النص لا ينفي عنهم الشعور، وإنما إعماله وأعماله بسوء الاختيار، وحتى إذا فقدوا الشعور لأنهم أبطلوه إذ لم يستعملوه، وبقي التنديد والعذاب على مبدأ اللّاشعور المختار، فالامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار!

(١) سورة محمد، الآية: ٣٠.

فأولئك الحمقى الأغفال يظنونهم رابحين بهذا النفاق الإغفال ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم خاسرون، لا في العقبى فحسب، ففي الدنيا أيضاً حيث يوردون أنفسهم بالكفر المضمر موارد التهلكة بما يفضحهم الله ويفضحون أنفسهم، إذ تظهر مظاهر من كفرهم من صفحات الوجوه وفلتات الألسن.

ومن مخادعتهم لله قولهم ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ. . . وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ومن مخادعتهم للمؤمنين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾:

باب ثالث من أبواب جحيم المنافقين: «مرض القلوب»: قلوب الأرواح لا الأجساد، فالقلب بيده أزمة العقول والأفكار والصدور والحواسّ والأعضاء، الزعامة العليا في مملكة الكون الإنساني، فإذا مرض مرض الإنسان في كيانه الإنساني ككلّ، فالمرض في القلوب حقيقة، وفي الجسد مجاز أم حقيقة ثانوية.

ولأن المرض - الذي لا يحاوَل شفاءُه يزداد دوماً، إن في الجسم أو في الروح سواء، سنة دائبة في الكائنات كلها، أن تنفرج زاويته في كلّ خطوة فتزداد من حيث لا يشعرون أو يشعرون.

فمرض الجسم يُشعر فيُدرك فيُتدارك مغبَّة الحفاظ عليه، ومرض الروح قد لا يُدرك وكثيرٌ ما هو، فلا يتدارك فيزداد، ثم القلب ومكاسب السوء يتعاملان في زيادته: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.

فهناك مرضان اثنان كلاهما في القلوب: ١ - ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.
٢ - ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ ومن ثم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾:

وطالما المرض الأول أجمل عن فاعله، ففاعل الثاني ﴿ٱللَّهُ﴾ فهل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالمرض الأول، أم وبالثاني أيضاً، أو ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ هنا وهناك حصيلة المرض، ونفاقاً في دعوى الإيمان؟

المرض الأوّل هو مرض الكفر والعناد للحق بما كانوا يكسبون، والثاني هو ازدياد الأوّل منذ بزوغ الرسالة الإسلامية تداوماً فيه ونتاجاً عنه كما توحيه الفاء: ﴿فَزَادَهُمُ﴾ فرغم أنهم كانوا يأملون لهم زعامات في الجزيرة، ويعملون لإزالة عقباتها وتعبيد طريقها، إذ فاجأتهم الدعوة الإسلامية، فأخرجت شطأها فآزرها فاستوت على سوقها يعجب الزارع ليغيظ بهم الكفار، منذ العهد المدني بعد ما أصيبت بجوارف الإصابات في العهد المكي.

إن ذلك الازدهار والتقدم في الدعوة زاد في مرضهم، فهذه الزيادة هي منهم إذ انفرجت زاويته لمّا انفجرت الدعوة، حسداً من عند أنفسهم.

وهي من عند الله إذ بعث صاحب هذه الدعوة، ولم يكن من الله إلّا كلّ خير ورحمة، ولكنهم لمرضهم بدّلوه إلى كل شرّ ونقمة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1] مرضاً إلى مرض ورجساً إلى رجس: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[2] فإن دعاء الكافر المعاند لا يزيد إلّا فراراً: ﴿إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.

فِرَارًا﴾[١] وهكذا تكون دعوات الرسالات الإلهية قد تزيد في إيمان لمن يؤمن، وكثيراً ما تزيد طغياناً وكفراً لمن لا يؤمن: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[٢]:

فـ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أوّل عاشوه قبل الدعوة ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ عند الدعوة حيث كذّبوها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ كما ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[٣]:

فثالوث المرض الأوّل وما زادهم الله وعذاب أليم - كل ذلك: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾: بالدعوة والداعية، وفي دعوى الإيمان.

ولماذا ﴿مَرَضًا﴾ دون «المرض» طالما الثاني استمرار بزيادة في الأوّل؟.. علّه لأن الثاني مزدوج: من نوع الأوّل، زيادة في الكفر، ومن سواه: حسداً منهم في مواجهة الدعوة، وطبعاً على قلوبهم لمّا كذبوا الداعية: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ على مرض ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

وعذابهم الأليم يعم يوم الدنيا ويوم الدين، فهنا أن زادهم الله مرضاً وفضحهم بنفاقهم، ثم يوم القيامة هم من المفضوحين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

باب رابع من أبواب جحيم المنافقين: دعوى الإصلاح في إفسادهم!

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾: قيلٌ إلهيٌ بلسان النبي أو المؤمنين المصلحين الذين يحق لهم نهي المفسدين، قيل لهواء المنافقين: ﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقولة

(١) سورة نوح، الآية: ٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٣) فـ«بما كانوا يكذبون يعلّل ثالوث المرضين والعذاب الأليم».

فارغة جوفاء منهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ثم فضيحة لهم عالمية في إذاعة قرآنية: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾!

وهكذا يكون دوماً دور المنافقين في كلّ عصر ومصر أنهم يحسبون أنفسهم من المصلحين، وغيرهم مفسدين، حيث الموازين مختلة عندهم، فإنها تتأرجح مع أهوائهم الذاتية، بعيدة عن الواقع والميزان الرباني، أو الإنساني.

إنهم يحسبون المكر والخداع شطارة ولباقة، سياسة يتذرعونها إلى ما يهوون فإن الغاية عندهم تبرِّر الوسيلة، ولأن الأصل من الحياة عندهم حيوانيتها وشهواتها، والوصول إلى بغيتهم ومصالحهم الشخصية، أو الجماعية التي تبوء إليها يحسبونها إصلاحها وفلاحها، لذلك يعدّون فسادهم صلاحاً وإفسادهم إصلاحاً: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: لا شغل لنا إلّا الإصلاح، وهم صادقون في إصلاح حيونة الحياة لهم، وكاذبون في إنسانيتها وقيمها وقوامها.

إنهم يتبجهون بثرواتهم ونزواتهم، طنطناتهم وعربداتهم، زهواتهم وزهزاتهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فقط، كأن لا مفسد سواهم، إذ ينافقون دوماً ولا يوافقون، ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم هم المفسدون حيث رأوا الصلاح فساداً، والفساد صلاحاً: «ولكنه أخلد إلى الأرض هواه وكان أمره فرطاً».

إنهم لا شغل لهم إلّا الإفساد: في الحرث والنسل، في الثقافة والعقيدة، في الاقتصاد والسياسة، وفي كافة الحقول الحيوية، محتلّين ساحاتها، طاردين أصحابها، متدخلين في كل رطب ويابس وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً: أنهم هم المصلحون ومن سواهم مفسدون!: وحتى النبيين: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ